المورد

مجلة تراثية فصلية محكمة

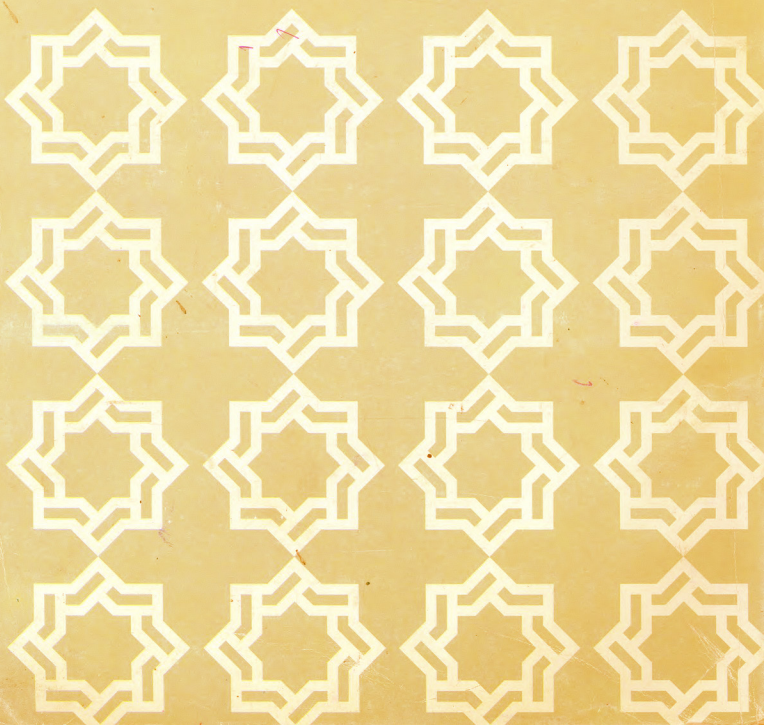

الهيئات الحرفية والمدينة الاسلامية

بقلم المستشرق

لويس ماسينيون

ترجمة الدكتور

اكرم فاضل

مديرية التراث الشعبي ـ وزارة الاعلام
بغداد

انكم مطلعون على هذا العلم الحديث نسبيا المسمى بعلم تنظيم المدن . لقد انهمك العلماء ، عقب انتعاش علم الاجتماع في مجال التحقيقات حول المجموعات البشرية ، بتأليف علم للمدينة ، سواء من جهة التوزيع الجغرافي لاعضاء المجموعات البشرية ، أو من جهة القواعد الخاصة التي تحكم حياة الناس المجتمعين ضمن نطاق مشترك .

انني راغب ان ادرس واياكم الخواص التي طبع بها الاسلام هذه الحياة في المدن اثناء تطور المدن التي شيد اركانها وحور بنيانها .

لدينا النموذج الاول لهذا الموضوع الذي يشوقنا ان نقارنه بنماذج اخرى للمدن . لدينا نموذج لمدينة غاية في البساطة تسمى في اللاتينية L'arx السور ، القلعة المحصنة التي يودع اليها كل ما يعتبره الناس ثمينا ، النساء ، الاطفال ، الاوثان . وما يزال بمقدورنا الوقوع على هذا النموذج الاوج في البدائية للمدينة في الاقطار التي تنعم بالسلام الاجتماعي الوطيد . وكمثال على ذلك اتذكر انني كنت رأيت في القطر الثائر مراكش قرية من هذا الطراز قائمة على جبل صغير ، مدينة محصنة كما ندعو المدن اللاتينية القديمة . هناك سور منيع على جبل متواضع ، مدينة تعاد اليها قطعان المواشي في كافة الاماسي ، أما بياض النهار فثمة على الدوام حراسة يحرص عليها الناس لتفادي اية مباغتة .

بديهي أن هذا الطراز لمدينة في غاية البساطة نجده كلما نجمت هناك حالة اجتماعية مضطربة ولدينا طراز لمدينة اكثر تطورا ، واعنى بها مدينة القدس ، موضع الاجتماع السنوي للتضحية المحتمة، وهي ضرب من پالاديوم Palladium (تمثال «پالاس» الاهة الحكمة عند الاغريق ، وكانوا يعتقدون ان سلامة مدينة طروادة مرهونة بالتمثال) .

ولدينا طراز آخر اعظم تفننا هو المدينة اللاتينية او الاغريقية التي بمجرد سكناك فيها تمنحك بعض الحقوق، هو ضرب من حق المدينة اصبح بعدئذ حق البرجوازية ، وذلك لان المدينة كانت في جوهرها منتدى للمناقشة ، حيث لكل انسان ملء الحرية في ابداء رأيه والمساهمة في المشاريع الجماعية التي يقيمها المجتمع الذي تؤلف المدينة اساسه .

هناك اهم شيء هو الساحة العامة ، ما يسمى الاگورا L'agora ، الميدان ، الفورم Le Forum المسارح ، الخ ...

ولدينا اخيرا ، بدائيا للغاية كما في الصين ، او متطورا بعض التطور ، كما في الديانة المسيحية ، نوع من سور ، من مدينة مشتركة يعيش فيها الناس مجتمعين بشكل دائمي متكامل . النمط الصيني هو اعظم الانماط غرابة اطوار : هناك الامبراطور مع كل ماهو موجود من اقدس المقدسات في الدومين العام في الوسط . انها المدينة الباطنية تسمية ، أما المدن الاخرى فتتحلق حولها بسلسلة من الدوائر المتراكزة اي المندفعة نحو المركز بصورة متعاظمة .

أما المدينة الاسلامية فلا تتمتع بأية شية

(*) محاضرة القيت في الكوليج د فرانس في الرابع من شباط ١٩٢٠ ، اثناء تدريس علم الاجتماع وعلم الاتنوغرافيا الاسلاميين .

من هذه الشيات . فبالرغم من ان المجتمع الاسلامي مجتمع محارب فليس بوسعنا ان نقول ان المدينة الاسلامية تعير السور اهتماما او بعض اهتمام . والمدينة الاسلامية فى الوقت نفسه غاية في البساطة ، اذا استطعت القول ، وفى ذؤابة العصرية ، باستنادها الى وقوعها على مفترق الطرق والمخاضة النهرية والسوق . وقوام المدينة هو السوق وهذاواضح كل الوضوح لدى عرب الصحراء الذين ليست لهم مدن بالمعنى الصحيح للمدن ، اذ يعيشون تحت الخيام ، ولكن لديهم سلسلة من المراكز الثابتة يجتمعون فيها حسب أيام الاسبوع ، كما تبدو على شكل دائري في الخارطة . انهم يجتمعون بصورة متتابعة لغرض البيع والشراء ويجوسون خلال ديار القبيلة حين تكون المسافات بين اجزاء القبيلة شاسعة ونضرب مثلا على ذلك قبيلة الدكلة Les Doukkala .

في مراكش لدينا تقريبا كل أيام الاسبوع موزعة على اقليم القبيلة ، ويكون قلب القبيلة بمثابة قلب المدينة . لدينا مواضع نصب الخيام بشكل ثابت للاءمة الموقع ، وتكون عادة في مفترق الطرق التي تؤدي الى هذه البقعة او تلك .

ولنفترض ان المكان الذي تجري فوقه مقايضات بالمواد هو المكان الذي تحدث فيه بعض التغييرات فى هذه المواد فهو اذن السوق بالمعنى الصحيح ، وفى حين لم تكن تقام سابقا في هذا الموضع الا خيام ليوم او يومين او ثلاثة أيام في الاسبوع ، يتحول الموضع بعد ان اصبح سوقا الى مدينة ذات حرف متخصصة .

ذلك بالضبط شان المدينة الاسلامية . المسألة الحيوية هنا هي موضع السوق حيث يقام شكل من اشكال العدالة ، ويظهر فيه المحتسب ، الرجل المراقب ، وهناك ايضا محل للصلاة ، ولكنه محروم في اغلب الاحيان من الغطاء . انه مصلى بكل ما فى المصلى من بساطة .

ان المدينة الاسلامية قائمة من حيث الاساس على فكرة السوق ، وان حيوية المدينة تعتمد على الهيئات المهنية .

وقد اتيح لي بادىء الامر في فاس وبعد ذلك فى بغداد ، وعقب هذا في مدن اسلامية اخرى ، فى الشام والقاهرة ، ان ادرس توزيع الهيئات الحرفية في مختلف المدن . وكان ما ادهشني هو قدرتنا أن نتخذ من ثبات التوزيع الطوبوغرافي للهيئات الحرفية فى المدينة الاسلامية بذاتها مبدأ . ذلك انكم ستلاحظون معي بسهولة عدم حدوث تغير تقني في الاساليب الصناعية منذ قيام الاسلام حتى القرن الثامن عشر . لدينا اذن على وجه التقريب ذات الاساليب بصورة دائمية . وعلى هذا نكاد نقول لدينا نفس الحرف التي تعيش مجتمعة بعضها الى جانب بعض ، بغية التعاون المتبادل ، سواء كانت الحرفة صناعة دبغ الجلود الرقيقة او صناعة السراجة او صناعة مزج الخيوط الذهبية او المتاجرة بالاحجار الكريمة .

هذه الظاهرة فى ذروة الاهمية لأنكم سترون عما قليل كيف اننا نوشك ان نرسم مخططا للمدينة الاسلامية منذ الآن .

هناك عدد من المراكز الثابتة في المدينة الاسلامية. فالموضع الاول المستقر هو موضع الصرافة ، ذلك ان الاسلام ولد في فترة كانت النقود موجودة فيها. فانطلق من مبدأ الصرافة وموازنة النقود لانعاش الحركة التجارية .

كان مركز السوق فى عهد الخيام هو مجتمع الناس لتبادل مختلف انواع النقود التي كان تبادلها ثابتا ويحدد اسعارها الدلالون . والحالة نفسها في المدينة المشيدة بالحجارة او بالاخشاب ، فلدينا قبل كل شيء المركز الثابت ، موضع تبادل النقود . هذا الموضع يكون بالبديهية بجانب المخاضة اذا وجد ثمة نهر ، او قرب الجسر حيث تقيم سلطة الموقع ادارة المكوس والكمارك .

هذان اذن موضعان تم ارتباطهما : موضع الصرافة وموضع الجباية. وهذا مفهوم مادام صاحب المكس قد دعي لتكون له علاقة بالصرافة لتصفية حسابات القطع التي تعطى له . وهذا لصالح النقود ، طالما ان كافة المدن الاسلامية ، وهي غالبا بالغة الصغر ، كان لها حق ضرب النقود ، وكانت تفضل سك النقود ، الضرورية لحاجاتها المحلية وفى مواقعها المحلية ، نظرا لصعوبات النقل واختلال حبل الامن.

لدينا اذن الى جانب موقع الصرف الكمارك والمكوس والنقود . وعندنا كذلك بصورة عامة سوق المزايدات ، وهناك بعد ذلك بالبديهة يقف هذا الموظف الذي حدثتك عنه مرات وشاقتك معرفته الا وهو مراقب الاسواق ، المحتسب ، الذي يتحقق من الموازين المستعملة ويراقب سير العدالة في المبادلات المصرفية ، اذن فهناك بصورة عامة نوع من رواق خارجي (مقصورة صغيرة بلا أعمدة Loggia) يقبع فيه . وهذا بالغ الوضوح في فاس . وبالقرب من موضعه يوجد بطبيعة الحال الموضع الذي يجتمع فيه الحمالون .

وعلى ذلك فلدينا هذا المركز الاول لكل مدينة .

لدينا بعد ذلك مركز ثان يسمى «القيصرية».

وانكم واجدون فيها عما قريب اسم قيصر ، وهذا موضوع شائق تماما ، وهناك ايضا قيصرية فى غرناطة ، بالرغم من كون غرناطة اصبحت اسبانية ومسيحية . وهناك قيصرية كذلك في فاس وكربلاء والقاهرة .

القيصرية هي مكان مقفل له ابواب غاية فى الصلادة ، على هيئة سوق فرنسية كبيرة تحفظ فيها البضائع الاجنبية والذخائر الثمينة للحرف المختلفة .

وستشهدون في الحال اهمية ما يمثل هذا الوضع في البلدة . هذا الوضع له مكان الصدارة فى الترعرع بجانب المؤسسة الاولى .

لماذا تسمى القيصرية قيصرية ؟ نوقشت هذه القضية كثيرا ، لعل تسميتها ذكرى للعهد البيزنطي وانا معتنق هذا الراي بطيبة خاطر . انها منشأة للبضائع الاجنبية والمدخرات الثمينة ، يستعملها التجار مذخرا لما عدا ايام السوق العادية او السوق الموقتة . وثمة شرطة محلية .

وبالنسبة للاسواق الكبيرة اشير لكم الى صفات مميزة لها في المدن الاسلامية ما تزال موجودة فى حلب، تلك التي نسميها الخانات الاثرية . انها ضرب من الفنادق التي تتكدس فيها البضائع لدى وصول القوافل . وبالاجمال فان القيصرية هي ضرب من خان ، من خان مقفل يتخذ فيه كل فرد موضعه المحجوز له سابقا تحت رعاية الشرطة ورقابتها .

وهناك مركز ثالث مستقل عن المركزين السالفين هو سوق المغزولات ، كما كانت تسمى في القرون الوسطى . انها السوق التي اليها تحمل النساء الغزل الذي هيأنه ليبعنه على الراغبين من المشترين . انها ما يسمى سوق الغزل . ولما كانت النسوة هن اللواتي يجئن الى السوق فيغمرنها بصخب المناقشات وضوضائها ، توفر بقرب السوق كل ما يمكن ان يحتجن اليه في حياتهن المنزلية . طبيعي ان يوجد بجوار سوق الغزل باعة اللحم المشوي، كما كنا نقول فى العصور الوسطى ، وطهاة اللحم المطبوخ والخبز المغموس بالزيت او ختاما كافة الاشياء الضرورية للمطبخ والطبخ .

هناك مركز رابع ارقى هو دارالعلم . وهي بصورة عامة تقع قرب المسجد ، واستطيع ان ادخلها فى حظيرة الحرف ، لانكم سترون حين ـ سنتحدث عنها في الخاتمة ـ طابعها التجاري المحض . انها تجارة العلم السائد بين الطلاب والاساتذة ، وعن طريق المران والمثابرة والمسابقة يصبح الطالب استاذا . ويجري هنا بالضبط ما يجري في السوق ، اذ يراجع الطالب هذا الاستاذ لانه اشهر من ذاك ، اذن فتدريس هذا المدرس يباع بسعر أغلى من سعر الاستاذ السابق . وقد يباع العلم احيانا بافدح الاثمان اما خارج المدينة ، كما هي حالة خارج اي مدينة ، فاننا واجدون اكوار الطابوق والجص والمجازر ومعاصر الزيوت ومطاحن الحبوب.

ولنضرب مثلا على ذلك اخطاط فاس. سترون في فاس هذه المؤسسات الاربع موزعة ادق توزيع.

فاس مستلقية على هيئة قمع محاط بأشجار الزيتون . هنا تقع القمة . هنا جداول صغيرة تتجمع وتنساب الى وادي فاس . انها فاس الجديدة . لنقصر حديثنا على فاس القديمة البلدة الصناعية الموزعة على الصورة التالية : لدينا جانبا وادي فاس ، وهما يسميان مدينة الاندلسيين ، وهناك تقع فاس القديمة الاصلية الاصيلة .

اتفقنا . وها نحن على الطريق الممتدة على طول سور المدينة الملكية ، بادىء الامر ثمة موضع يكمن فيه المحتسب ، الشخص الذي يراقب الحرف . ولدينا سوق الغزل . هنا القيصرية . هناك المسجد الجامع مع دار العلم (الجامعة) ، لدينا الكمارك والمكوس . وها انكم ترون بصورة مجملة أن المؤسسات تتوزع توزعا جماعيا .

وسترون فى جميع المدن الاسلامية تماثل توزيع المؤسسات الاساسية .

فاذا اعطيتكم الان اخطاط بغداد المجمل فسترون فيه على وجه التقريب نفس التوزيع . تقع بغداد على طول نهر لم يعد نهرا صغيرا كنهر فاس ، انه نهر كبير سريع واسع ، اسست بغداد فى موقع لا يمكن اقامة جسر حجري عليه بسبب سرعة التيار وسعة القناطر التي يجب ان تشيد عليه . فوضعت جسور بسيطة من القوارب . ولكن ثمة سد كلداني يبرهن فيحسن البرهنة على وجود ممر تجاري قديم في بغداد ، وطبيعي تبين سبق وجود سوق طالما وجد العبور .

هذا الممر هو طريق فارس .

اقام العاملون هنا . ولكن سبقهم هنا وجود سوق كما هي الحال في فاس . ان ما يروقنا من الاسلام هو كون الحياة البلدية مستقلة فيه تمام الاستقلال عن العامل . وسترون فوق ذلك الموازنات الممكن عقدها مع الحياة البلدية في القرون الاوربية الوسطى . هذه الحياة بالتأكيد واقعة خارج تأثير

العاهل . ويوجد حتى اليوم في فاس روح متمردة لها خواصها ثائرة بوجه العاهل . على اننا لا يحسن بنا ان نعتقد ان الحياة البلدية المسلمة تعاني من النزق المركزي للعاهل كما هي الحالة في الصين مثلا. أعود الى بغداد مرة اخرى . ان مدينة العاهل لا اهمية لها . لدينا السوق التي كانت في القديم هنا . وقد نشطت السوق من جراء المتاجرة مع فارس واقامة الجسور المؤلفة من القوارب ، فامتدت الى الجانب الاخر الشرقي .

في الجانب الشرقي لدينا دار سك النقود المقامة تماما على راس الجسر بجوار المكوس . لدينا القيصرية القائمة هنا بجانب سوق المزايدات . لدينا بطبيعة الحال بجانب دار سك النقود صاغة الذهب والصرافون . لدينا هنا سوق الغزل . لدينا خارج المدينة الطواحين واكوار الطابوق . عندنا الصباغون والصقالون قرب الماء بالبديهة . ويظهر الحدادون منزوين شيئا . وتنتبذ المجازر خارج المدينة مكانا قصيا .

ترون هنا نفس الطابع المتميز الكائن في فاس . وبمقدوري ان اريكم نفس التوزيع في القاهرة او في حلب .

تتنامى المدينة ، اذا استطعت القول ، ضمن ابسط الظروف للدراسة الاجتماعية. ترتبط حيويتها بحيوية السوق . انه التبلور الموضعي للسوق يتحول الى تكامل صناعي متقن قائم على المواد المتبادلة ، اذ بطبيعة الحال تقام خارج المدينة ، كما هي الحالة في فاس مثلا ، مصانع للنسيج ، مطاحن، مغاسل للملابس ، مناشر للخشب ، تشاد هذه المصانع الكبيرة على طريق مداخل المدينة وليس في احشاء المدينة .

اما من جهة تصنيف الحرف فهو نفس التصنيف الموجود في كافة مدن العالم وليس لدينا ملاحظة خاصة بهذا الصدد .

لدينا اربعة تصنيفات كبيرة كما هو الامر في جميع حرف المدن .

ثمة قضية الغذاء . هناك قضية المواشي . هناك قضية الحبوب . هناك قضية الخضراوات التي تمر بالمجازر ـ والاكوار والطواحين : ثم لدينا مواضع البيع ، الخباز والفاكهي . احدث كل هذا بعد التحول الذى طرا بصورة عامة على ارباض المدينة .

اما بخصوص صناعة الملابس فلدينا النساء اللواتي يجلبن الغزل او القطن الذي لم يغزل بعد الى السوق . ومن هنا يمضي الى النسيج او الى الندف ، الى الصبغ . اما بالنسبة للجلود فهناك الدباغة . ولدينا في باطن المدينة الخياط والحصري للحصران والسراج الخ ..

اما الباب الثالث فهو باب السكنى . سواء كان البناء من الحجر او من الخشب ، فان لدينا المقاطع ومستغلات الخشب في الضواحي ، او المناجم اذا كانت القضية قضية معادن .

لدينا الصناعات المتحولة في الضواحي ، معامل الآجر ، اكوار الجص ، المناشر ، وفي صميم المدينة نفسها المعمار والنجار وصناع القدور النحاسية . واخيرا بالنسبة للقضايا البيتية من الحلي والسلاح والعطور الخ ... تتوزع هذه داخل المدينة الى جانب الحرف الاخرى التي تستعمل المواد نفسها .

حول موضوع تصنيف الحرف اشير عليكم بمراجعة المعلمة الاسلامية العجيبة التي هي بالاضافة الى ذلك تمس كل المساس الهيئات الحرفية طالما دبجتها اقلام احرار المفكرين المسلمين في القرن الحادى عشر الميلادي . انها تدعى « رسائل اخوان الصفا » اذ تؤلف نوعا من التصنيف الفلسفي للحرف في الحياة الاسلامية حسب المادة والمكان والزمان وعدد الادوات التي يستعملها الصناع . اشير بها عليكم لمجرد البرهنة لكم على درجة افتنان مخيلة المسلمين في مسالة الحرف .

وعلى سبيل الموازنة ساذكركم بتصنيف الهيئات الحرفية بباريس . وانتم تعرفون اخبار الهيئات التجارية الست الكبرى التي كانت ناشطة في باريس في نهاية العصر الوسيط وكان يمثلها : الجواخون والبقالون والبزازون والفراءون وباعة المنسوجات والصاغة .

والان تدركون من وجهة التصنيف الحالي الاهمية التي احرزها في المنظمات النقابية ، في الكارتل الفدرالي ، اتحاد النسيج ، اتحاد عمال المناجم ، اتحاد المعدنين .. الخ . وبعبارة اخرى لدينا ظاهرة عمومية للغاية . بالغة الاهمية وشديدة العمق في الحياة الاجتماعية . ومن المناسب ان نتبين جميعا مميزات هذه الظاهرة من وجهة النظر الاسلامية .

يجب علي ان انبهكم الى حتمية بذل جهود كبيرة لجمع القلة القليلة من الاشياء التي انفحكم بها ذلك لان المؤرخين المسلمين تكلموا عنها اقل ماتكلموا، والحرف كما هي حالتها لدينا ، لم تجمع انظمتها واعرافها الا متاخرة كل التاخر بحيث انني ظللت خلال فترة طويلة للغاية انقب عن الوثائق والاسانيد. ليس ثمة الا ثلاثة او اربعة مصنفات تبحث في هذا الموضوع ، وبالاضافة الى ذلك فهناك مخطوطات

يصعب الوصول اليها او يستحيل . هناك مخطوطة في گوثا Gotha على درجة كبيرة من الطرافة حول الهيئات الحرفية يمكن ان تهبنا تفاصيل نافعة عن تنظيماتها . ولكنها لم تنشر وليست فى حالة يصلح معها نشرها . هناك النزر اليسير من الدراسات التي كتبت حتى يومنا هذا . وجلى كل الجلي اننا بسبب عدم دراستنا دراسة شافية للثورة الفرنسية ولما قبل الثورة الفرنسية ، نجد انفسنا آنيا ، حتى فى مجتمعنا نفسه ، تجاه مشاكل عويصة وذلك لوجود انفصام وعدم تفهم وجهل متبادلة بين الاطراف المختلفة ، بين الحرف المتنوعة في المدينة . كيف تنظم الحرف ؟ بالطبع كان هناك العبد ، ولكن العبد في الحياة الاسلامية ، لم يلعب الدور الذي لعبه في الحياة وفى المدن العتيقة ، ينبغي من هذا المنطلق ان نهب بكل حزم واقدام للوقوف بوجه هذا الزعم الذي يزعمه الباحثون فى بعض الاحايين تجاه الايدي العاملة للاقنان لدى المسلمين ، كان العبد يعامل على الدوام باشفاق ارحم عند المسلمين . ومن جهة اخرى فان الصناعة ، كما نراها اليوم ، لم تكن قد انتصبت بقامتها الا متأخرة في العالم الاسلامي ، فلم يكن ثمة استغلال للايدي العاملة للعبيد كالاستغلال الكائن في الازمنة السحيقة . اذن ليس بمقدور أحد ان يقارن عمل العبيد في العهود الاسلامية بعمل العبيد في العصور الضاربة الجذور في التاريخ.

ان المسلم الصميم ، كل مواطن ، الفرد الذي اعتنق الاسلام وتحرر كليا بعد اسلامه يجد نفسه على قدم المساواة مع كل المسلمين ، فهو مثل بعضهم يعمل في حرف غاية في التواضع . فاذا كان لديه متدرجون متمرنون ، فليس معنى ذلك ان لديه عبيدا ، انما الحكومة نفسها او بعض كبار الملاكين هم الذين يمكن ان نراهم يستخدمون مثلا اسرى الحرب . وكمثال على ذلك كان عمل نشر الخشب في المناشر يقوم به الاسرى المسيحيون في العصر الوسيط .

وبوسعنا ان نوازن هذه الحالة بحالة عمال المناجم فى الترنسفال الذين هم من الصينيين . انه النوع نفسه بالضبط . بل انني متأكد ان الاسير المسيحي فى فاس ، وسأقيم الدليل على ذلك ، كانت له حرية أوسع من حرية العامل الصيني في الترنسفال ، طالما كان هناك اسقف خاص يعينه البابا للقيام بالفروض الروحية تجاه العبيد المسيحيين الذين عاشوا فى فاس مدى ثلاثة قرون وعلى ذلك فلن نوجه اهتمامنا الا الى العمل الذي يقوم به المسلمون والهيئة الحرفية . ان الاستاذ والمتمرن هنا مسلمان وحران . هذه پروليتاريا . لقد بالغ بعضهم بعض المبالغة بالجانب الفني لعمل الصانع اليدوي . من المؤكد انه مشغوف بحرفته . ولكن من الجهة الاخرى له مطالب حياتية . اذن فهو ليس هوائي المزاج يدرس نموذجا من النماذج لفترة طويلة ، كالصانع اليدوي الياباني الذي يقتات بميسور الاشياء ويستطيع العمل خلال سنوات فى الفنون التي يؤثرها . وهو كذلك ليس انسانا شرها في التهافت على الكسب .

هناك فكرة تتسم بالتعاون لدى الصانع المسلم ، وسترون ان للاسلام ضلعا في هذا التفكير . ليست ظروف الصناعة وحدها هي التي كانت عامة فى العصر الوسيط ، سواء فى الغرب او في الشرق ، وانما كانت هناك روح تتصف بالاعتدال والجماعية تسود العالم الاسلامي . اذن فلسنا تجاه نزاع بين المدن الاسلامية ـ ولهذا فان الظاهرة عامة ـ نحن لسنا تجاه نزاع بين ما نسميه في الغرب رابطة العمال والحرف . رابطة العمال التي تضم الجمعيات الدمقراطية والعمال والايدي العاملة المتواضعة التي تنتقل من مدينة الى مدينة للاعمال الكبرى ، والهيئات العليا التي على العكس من ذلك تضم الاستاذيات ومجالس المحلفين، الاساتذة الذين يقيمون فى المدن بصورة دائمية ويؤلفون ثروات تلك المدن .

ان قوام الحرفة الاسلامية هو مجموع القواعد المقسوم عليها بقسم مشهود . هناك نوع من قانون وضرب من عرف . هذا العرف للجماعة الحرفية المسلمة يسمى باسم شائق هو « الدستور » . كان لكلمة الدستور نصيب هالته المجد ، طالما هي الاسم الذي اطلق عام ١٩٠٨ في تركيا باسم الثورة على القانون الاساسي الذي كان الشعب يطالب بتطبيقه . كان الناس يصيحون : « الدستور » . وكانت فكرة مطلبهم الرجوع الى العهد المقسوم عليه. كانوا يقدرون وجود عهد سابق بين العاهل ورعاياه نكث به العاهل فذكروه بوجوب احترام القاعدة المكتوبة . اذن فكلمة الدستور كلمة بالغة الاهمية، ولعل اصلها فارسي . انها قديمة في اللغة العربية ، وعسى ان تكون قيلت قبل الاسلام . وعلى هذا فهناك قانون شأنه كشأن القوانين الاخرى بدا غير مكتوب وانتهى بالتدوين. ولاتحادات الهيئات الحرفية فرديتها وهي تستمد فرديتها من هذا القانون الخاص الذي ارتضاه كل عضو من الاعضاء بانخراطه فيه بقسم رسمي .

وعلى سبيل المثال لديكم باعة في غاية التواضع ـ وقد رايت بعضهم في حلب فى العام الماضي ـ انهم

باعة عرق السوس ، فللهيئة الحرفية التي تضمهم دستور يبلغ عمره عدة قرون . وحين ينغمسون في مشاداتهم لا يلجأون الى المحكمة العادية ، ولا يمضون الى غرف التجارة، لان هذه المؤسسة الجميلة طارئة على الشرق ، وانما يراجعون دستورهم الخاص فيتناظرون وفقا للقواعد الخاصة لحل خلافاتهم .

هذا الدستور يتطلب من جانب المحكومين به ان يعملوا عملا متقنا وان يبيعوا بضائعهم بسعر عادل . وحينما ينوون تغيير الاسعار ، واذا هددوا بشن الاضراب ، فان لهم جملة خاصة بهم ، اذ يقولون : « لم تعد الحرفة ماشية » وهذا النوع من الايذان بالاضراب يعني وجوب اعادة النظر في التعريفات .

ان ما يتسم به هذا الدستور من روح اسلامية متميزة هو تحريم الربا . وهي الظاهرة الكريمة التي لفت اليها انتباهكم انفا . الاسلام بالغ العنف، بل هو اشد عنفا ، اذا استطعت القول ، من المسيحية ضد الفكرة التي تحكم العالم المعاصر ، ولا اعتقد ان هذا الحكم هو من صالح العالم الحديث (اي الربا) . فالاسلام لم يؤمن مطلقا بالاخصاب الذاتي للنقود ، بل ظل يشجب الفائض والربا ، وفي دستور الاتحادات الحرفية ، واضح وضوح الشمس ، وجوب الالتزام بالسعر العادل ، وليس الركض وراء المزاحمة والمنافسة .

والاسلام حتى من هذه الناحية ذهب الى ابعد من الشوط الذي ذهبت اليه المسيحية . فقد اقام نسبة ثابتة (١٠٪) بين سعر الذهب وسعر الفضة، وهذا غير ملائم ، نظرا للتباين الذي يحصل في انتاج المناجم ، وفي بعض الاوقات التفاوت في طرح المواد الثمينة في السوق من الذهب والفضة بين حين وآخر .

وعلى كل حال فما ينبغي ان نلاحظه في دستور الهيئات الحرفية الاسلامية لكونه اسلاميا محضا هو بعض الاحترام للعمل اليدوي . ولا يصح ان نقول ان المسلم هو ضد العمل اليدوي . انه ضد الحراثة . فالمسلم لا يحب ان يحرث ، والعمل في الارض يقزز نفسه . ولكن عمل التحويل وعمل المصانع اليدوي هما عملان يقوم بهما المسلم باحكام واتقان .

وطبيعي ان هذه التكوينة التي سميتها لكم ، نظرا لاهميتها البالغة واسمها : « حرفة بالعربية ـ كار بالفارسية ، يجب ان يكون لها رئيس . ويدعى الرئيس « البير » او « النقيب » . وهذا الرئيس، كما قلت لكم هو الحارس الامين على دستور الحرفة. فهو الذي يقيم ميزان العدالة بين المتشاكين، وفي القضايا البالغة التعقيد التي كان من المحتمل ان تصل الى القاضي في احايين كثيرة. وبالاجمال فان لدينا بالتمام ما كان موجودا في حرفنا في العصر الوسيط ، بل حتى ما عاش منها ردحا طويلا من الزمن حاملا اسم « رفاق الواجب » .

ولو نظرنا الى القسطنطينية حوالي عام ١٦٤٠ لميزنا في تلك الاونة وجود ٦٠٠ حرفة درست من قبل مؤرخ عثماني هو اوليا جلبي . وهذه الحرف الستمائة صنفت ٢٤ صنفا . وها انكم ترون سبق وجود منظمة حرفية كاملة مستوفية الشروط .

ان حياة الحرف في المدينة الاسلامية تتسم بسمات خاصة .

واذا توخينا الدقة قلنا ان المدينة الاسلامية قد اشتملت على باعة من غير المسلمين . وهذه الظاهرة تستحق الاعجاب الشديد لانها تنصب على التطور الاجتماعي الاسلامي برمته . وسترون ان هذه الواقعة لها تاثير بالغ في تاريخ العرب .

في المجتمع الاسلامي الموغل في البدائية ـ واوشك ان اقول حتى في اسرة الرسول اذ ان الرسول قد تزوج بيهودية ظلت يهودية وكانت له جارية مسيحية ظلت مسيحية ، وقد دخل في معاهدات مع مدينة يهودية ظلت يهودية هي خيبر ومع مدينة مسيحية ظلت مسيحية هي نجران ـ اقول يمكن الان في مجال الحرف ان يكون بل يجب ان يكون في المدينة الاسلامية حرفيون من اهل الكتاب ، ومن اديان موحدة اخرى كاليهود والمسيحيين والصابئة مع ما في ديانة الصابئة من غموض لن نصر على معالجته هنا . ولكن مع ذلك اتاحت هذه الحالة لسلسلة من العبادات الاخرى ان يعترف لها بحقوقها بوصفه افرادها مساهمين في حياة المدينة الاسلامية . وهنا شيء يقسرنا قسرا على ملاحظته هو ان هذه الطوائف كان لها حرف خاصة بها .

لليهودي والمسيحي فقط الحق ان يكونا صرافين في المدينة الاسلامية ، حتى في قلب المدينة وان يكونا موازنين لاسعار الصرف . ويستفيدان من الحالة طبيعيا ليقرضا بفوائد . ولن نقول ان ذلك من روح الاسلام ، ولكن الاسلام كان يتحرج كثيرا من مساس الذهب والفضة ، لهذا ترك تعاطيهما لليهود والنصارى (١) .

ويتعامل اليهود بالحلي ايضا . وقد ترك

(١) الا في مكة والمدينة .

الاسلام شيئا آخر للنصارى واليهود وهو الطب. وعلى العموم ففي المدينة الاسلامية البدائية شيئان جوهريان بصورة مطلقة عهد بهما الى غير المسلمين هما التعامل بالنقود والمعادن الثمينة من جهة ، والطب من الجهة الاخرى . اذن فمن وجهة النظر الى المعادن كان هناك توفيق في المدينة الاسلامية . اما الانخراط في الحرف الاسلامية فمسموح به لغير المسلمين .

هناك دراسة شائقة للغاية ادار موضوعها ايليا القديس عام ١٨٨٢ حول الحرف الدمشقية . اذ نشر ايليا القديس هذا دون ان ينال رضى الحرف المعنية ، دراسة وافية بالمرام حول اليمين التي يؤديها المنتسبون اليها ومراسيمها .

فالمرشح المتقدم لنيل الاستاذية يجد نفسه شاطرا فى مراسيم تتالف من ثلاث مراحل :

قبل كل شيء التماس بالايدى والاقدام واشاراتها ، بما يسمونه « عهد اليد » .

وبعد ذلك ينطقه رئيس الحرفة وزعيمها بمنطقته اثناء الاحتفال . وهذا مايسمى « شد المحزم » والاجراء الثالث اقامة وليمة حرفية تدعى « التمليح » اى المشاطرة فى الملح .

ان ما نلاحظه باعجاب لروعته هو وجود عراب يضمن المرشح من جهة كفايته . والمرشح يجب ان يكون لديه راسمال صغير ، اذ يترتب عليه تأدية مبلغ صغير بصفة مساهمة في نفقات الاحتفال .

ويشترك غير المسلمين في مراسيم الاحتفال ، مع ان لديهم عرافا مسلما ، بزعم انهم لايعرفون الاشارات . وهذا تقييد وهمي ، كما سنرى مصداق ذلك بعد هنيهة . ولنمضي الان الى القسم الثالث : ما كان التاثير الاجتماعي لحياة الحرف في الاسلام ؟

***

راينا ان الخاصية المميزة فى تكوين الحرفة فى المدينة الاسلامية هي اليمين القانونية . انها كما قلنا عن العصر الوسيط ضرب من تعويذة اورفية .

لم يكن الاسلام ابدا معاديا لاداء اليمين ، اذ كان يفرض غرامة على الحانث بيمينه ، كما قلت لكم في درس سابق . كان ينص على الايمان من كل نوع وهو اقل صرامة من المسيحية من زاوية النظر هذه. وبمقدار مانظرت الكنيسة الكاثوليكية نظرة ارتياب وحذر الى ايمان الطوائف الحرفية والكومونات في العصر الوسيط ، التي سنراها تدخل في الغرب المسيحي محاكاة للطوائف الحرفية الاسلامية ، نقول بنفس المقدار حمى الاسلام في مطلعه اليمين الحرفية ورعاها .

هل اليمين من اصل اسلامي ؟ لا اعتقد ذلك. ولست بحاجة لان اقول لكم مايقال بصدد الانتماء الحرفى الاسلامي من ان عليا هو اول من تحزم بحزام شده رسول الله حول وسطه ، مبينا له ان الملك جبريل قد لقنه . ولكن ليس لهذه المسالة الا اهمية نسبية . ان المجتمعات الاولى لليمين في الاسلام ، الا وهي مجتمعات القرامطة ، عميقة الجذور في القدم اذ يرقى تاريخها الى عام ٨٥٠ .

ويخيل الي ان هذه المجتمعات كانت على اتصال بالمانويين . وسنجد تاليا هذا الشيء المذهل لدى الطوائف الحرفية في نهاية الامبراطورية الرومانية واعني به التأثير المانوي . انها قضية شديدة الاهمية ومع ذلك لن نحوم حولها .

وايا كانت الحالة فالواقع اننا نشهد من عام ٨٥٠ الميلادى ، اي بعد مضي مائتي سنة على تأسيس الاسلام ، تنامي حركة القرامطة السياسية واستخدام هؤلاء للهيئات الحرفية ولليمين الحرفية لنشر دعوتهم فى كافة الاقطار . ذلك لان التجار لايلفتون الانظار ، والشرطة لا تراقبهم مسبقا ، وهم يركضون وراء مقتضيات تجارتهم ، والدعوى القرمطية ، التي انتهت الى تأسيس سلالة تدعى بالفاطميين نهضت على منظمة الهيئات الحرفية والتنظيم الداخلي لليمين الحرفية .

هناك اشياء مثيرة للاستغراب كثيرا ذلك لان القرامطة قد انجبوا سلالة حكمت خلال قرنين فى القاهرة والمغرب . وهذه السلالة نفسها احدثت فرقة ماتزال موجودة ، ونعني بها طائفة الدروز في لبنان . وما زلنا نلاحظ في هذه الايام على الدروز ان لهم نفس اشارات الماسونيين الاحرار من وجهة نظرهم الى شيوخهم . اذن فنحن تجاه سلسلة ذات حلقات شديدة الغرابة . ولدينا بالاضافة الى ذلك الكثير من التفاصيل حول الماسونية الحرة القرمطية ، وليس بوسعنا ان نسميها تسمية اخرى ، انها الماسونية الحرة نفسها ، بدرجات منتسبيها مع الاشارات الخاصة التي تراعى مراعاة تامة . ولن اخوض في التفاصيل خوفا من الاطالة . كل ما اريده لنفض يدي من البحث هو ان احدد لكم كيف استطاعت هذه التشكيلة الاسلامية ان تؤثر بصورة خاصة فى ابرز حرفة من حرف المدينة الاسلامية وهي الجامعة ، هذه التشكيلة التي انصبت على حياة الحرف الخاصة مزودة بدستور تجاري ان لم يكن من اصل اسلامي ، فانه مع ذلك قدحماه.

من المؤكد ان المتاجرة بتدريس العلم حول المسجد وخلق فريق من هذه الطائفة من المدرسين

والطلاب الوافدين وتكريس فنادق الطلاب وتوزيعهم عليها حسب منشأهم ، مغاربة كانوا ام سوريين في الازهر ، ام كانوا من كلية الامم الاربع في القرون الوسطى هنا في باريس نفسها ، كل هذا جعل من الجامعة حرفة من الطراز الاول ، حرفة تأثرت بهذه الدعاية القرمطية ، اذا صحت بنوتها التي رسمت خيوطها لكم .

وايا كانت الحالة فالواضح كل الوضوح ان الجامعة الاسلامية الكبرى الاولى ، جامعة الازهر ، تأسست بالفعل على ايدي الفاطميين عام ٩٦٩ ، في حين ان الجامعة الغربية الاولى لم تؤسس الا في القرن الثاني عشر في باريس . اذن فهناك قرنان يفصلان بين الجامعتين .

وقد حاول الاستاذ الاسباني ربيرا ان يبرهن على ان التنظيم على اساس الامم في جامعة باريس في العصر الوسيط لم يكن وحده قد نسخ نسخا عن الجامعات الاسلامية فحسب وانما نسخت عن الجامعات الاسلامية كذلك التنظيمات الداخلية وحقوق الاساتذة والطلاب . وقد استخدم القرامطة الجامعة لنشر مبادئهم الفكرية واشاعتها . وبدلا من ان تكون كما هي بالنسبة لافراد الحرف اليدوية اسرارا يتناقلها بعضهم عن بعض في صيغ خاصة ، اصبح العلم بنفسه يتناقلونه في صيغ خاصة . اذن فالمشكلة اوسع مما نتصور . ونحن واجدون انفسنا هنا على مساس بأحدى النقاط التي ربما رد بها الاسلام على المسيحية .

انها مشكلة آمل ان نتدارسها في السنوات المقبلة . وقد شرعنا بمواجهة بعض مظاهر هذه المسألة الرئيسية : انها مسألة اصل مانسميها (الكومونات) . انكم على علم بكل ماقيل عن الكومونات. قيل انها من اصل روماني . زعم بعضهم انها من اصل جرماني مع الكيلد والهانس Les Guildes et les Hans جمعيات تبادلية تشكلت في العصر الوسيط بين الطوائف الحرفية من عمال وتجار او فنانين .

٢ ــ عصبة المدن التجارية الالمانية الشمالية الغربية . وكان على راسها لوبيك . ويرجع تاريخها الى عام ١٢٤١ . وكان غرضها حماية تجارة المدن الالمانية ضد قراصنة البلطيق والسعي لاعفاء البضائع من الرسوم تجاه الامراء المجاورين) .

واذا اردنا ان نرى كيف نشأت الكومونات ، لو نظرنا الى خارطة اوروبا في القرن الوسيط ، ولو لاحظنا الى جانب المدن تاريخ ظهور الكومونات ، اي ظهور حياة مستقلة استقلالا ذاتيا ، مستقلة استقلالا تاما عن الاسقف والسيد الاقطاعي ، مقاومة نفوذهما ، لراينا ان اقدم الكومونات تاسس على تخوم المسيحية ، فالكومونات اذن ليست حركة مركزية . وها نحن نرى من جهة اخرى ان هذه الحالة لم تبدا مطلقا في المانيا ، كما قال بعضهم بصدد النظرية الجرمانية ، ولكنها ظهرت على امتداد الطرق التجارية في نفس الوقت الذي برزت فيه المنظمات الحرفية ونجم هذا في غاليسيا ، في شمال اسبانيا ، في لومبارديا في البلقان ، اي في جميع الاقطار التي لها احتكاك بالاسلام . كل هذا خليق بالملاحظة .

ومن جهة اخرى نحن نرى ان الكومونة في كافة المدن ليست الا هيئة حرفية قوية تجر الهيئات الاخرى اليها . وكما كانت هناك مصالح مشتركة ، مصالح تجارية محضة تجمع بين السكان ، فقد توصلت الى اشهار عرائض المطالب وفرضها على السيد الاقطاعي سواء كان اسقفا اقطاعيا او اقطاعيا دنيويا . وباريس مثال على ذلك بشعاراتها التي ما تبرح ناطقة حتى يومنا هذا . فانتم تعرفون جميعا السفينة التي ترمز الى قدر باريس وتعلمون ان كومونة باريس ــ وهي المجتمع المستقل عن الاقطاعي اذ انها هيئة حرفية شديدة البأس ــ كانت تدعى (تجار الماء) اي اولئك الذين كانوا يتعاطون التجارة على جانب من نهر السين .

لدينا اذن منذ الاصل هيئة الحرفيين . والكومونات هي اتحادات حرفية . ولو لوحظنا ، ونحن نعلم هذا تاريخيا ــ ان اسرار الحرف بل تكوين حرفة البنائين نفسها مثلا في الغرب آتية من الشرق لتقيم في لومبارديا ثم في فرنسا لاستطعنا ان نفترض ان ثمة رد فعل حقيقي لشكل حياة اجتماعية اسلامية اثر في الحياة الاجتماعية للعالم المسيحي . وهذا الامر كان له نتائج هائلة من وجهة النظر التاريخية (وذلك اهتداء بمنحني التقدم نفسه لحركة الكومونات الذي يرينا ان الحركة جاءت من الشرق على امتداد طرق التجارة اثناء الحروب الصليبية نفسها ، في حقبة تكاثف النشاط التجاري في الشرق تكاثفا شديدا) . لدينا في الواقع بعض الدلائل التي لايصح اغفالها . اول هذه الدلائل ان اجماع الاعضاء هو الذي يملك حق الكلام في الكومونات . هناك مايسمى الليبرم فيتو Leliberum Veto (حرية الاعتراض في پولونيا القديمة) اي ان على الكومونة ان تتخذ قراراتها بالاجماع . وهو بالضبط المبدأ الاسلامي المسمى بالاجماع .

ليس في الاسلام قرار نافذ المفعول اذا لم يكن بالاجماع Un Consensus ولن تعوزنا الامثلة على ذلك . اذ يقص علينا الشعراني في القرن الخامس

عشر ان رجلا شتم الرسول فى شارع من شوارع القاهرة . فالقي القبض عليه ودعي مختلف العلماء الى اجتماع عقد ليقرر العقوبة التي يجب انزالها بهذا الجاني . فارأى العلماء جميعهم اعدامه ، الا عالما اعترض على هذا الرأي قائلا ان الرجل كان معذورا فينبغي الاكتفاء بجلده ثم اطلاق سراحه . فلم ينفذ الحكم بسبب الاعتراض الوحيد .

انها اذن فكرة اسلامية محضة : يجب الاجماع اذ لا تفيد الاكثرية مطلقا لحسم مشكلة من المشاكل.

ثمة سمة ثانية هي اليمين التي هي ليست من اورومة مسيحية ، اذ سأذكر لكم على سبيل المثال مجمعا كنسيا اسقفيا شجب عام ١١٨٩ شجبا قاطعا اليمين المحلوفة خارج الكنيسة . فلا يلتزم احد بما نصت عليه اليمين اذا وقعت خارج الكنيسة لغرض دنيوي . لقد استنكرت الكنيسة على الدوام الايمان الحرفية . وكانت هناك ادانة قانونية لهذه الايمان من قبل السوربون عام ١٦٥٥ . انها الادانة البابوية للماسونية انطلاقا من مبدأ وجوب الامتناع عن حلف اليمين خارج الكنيسة لغرض دنيوي فى سبيل الالتزام تجاه الاخرين بشيء مجهول الابعاد . في حين اقتضى للاسلام انقضاء عدة قرون لاجل معرفة خطر الماسونية القرمطية ، ولم تكن في البداية من وسيلة للدفاع .

وعلى الصعيد الثالث نجد في الحرف عددا لا بأس به من الكلمات . واشير عليكم بكلمة Tarif تعريفة ، فهي كلمة عربية ، ثم هناك كلمة Douane (الكمارك) الديوان ، والى اي حد لا تكون بالاحرى كلمة (Charte شرت) هي كلمة شرط العربية ؟ هذه مسألة سلفت مناقشتها . ثم لدينا شية جديرة بالتصوير فى كومونة العصر الوسيط وهي تذكرنا بالاسلام ، من الناحية الهندسية على الاقل ، واعني بها : برج الحصار Beffroi الاسلام هو الذي خص اليهود فى العصر الوسيط ؛ بالاشرطة الصفراء، وهي ضرب من شارة صفراء وطنية كان يحملها الصياريف اليهود خاصة. ولم يتميز اليهود بالصيرفة اي الجهبذة قبل الاسلام . كان هناك جهابذة يهود ، ولكنهم لم يكونوا صيارفة او مصرفيين في العالم الروماني، وانما الاسلام هو الذي اقام هذا التخصيص تجاه اليهود او المسيحيين ، فهؤلاء واولئك لم يكن بمقدورهم ان يمارسوا من المهن الا مهنة الصراف أو مهنة الطبيب .

والخلاصة اننا واجدون اليهود في حياة مدن العصر الوسيط محصورين في هذه المهن ، ومما هو قمين بالملاحظة جدا انهم كانوا يحملون شارة صفراء تماما كما كانوا يحملونها فى العهود الاسلامية قبل ذلك بقرون .

وليس صحيحا صحةأقل أن الهيئات الحرفية، حيث نبعت منها الكومونات على غرار الجامعة ، قد اصبحت مسيحية الملامح . فالجامعة التي كانت مستقلة عن كل سلطة مدنية او دينية فى القرن الثاني عشر طلبت في القرن الثالث عشر حماية الملك والبابا، ثم جاءت ما نسميها الاخويات (الجمعيات الدينية او حلقات البر والاحسان) فوضعت نفسها تحت امرة القديسين ، ولكن هذا لا يمنع كون اصل الحركة اصلا اجنبيا تجاريا يتصل وفق حدسي بالتنظيم الاسلامي للهيئات الحرفية اتصالا وثيقا .